محاسبة النفس عند الإمام الحارث المحاسبي

إعداد

شيرين محمد كمال محمد العباسي

طالب دكتوراه قسم فلسفة كلية البنات

إشراف

أ.د/ سلوى محمد مصطفى نصره
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية
كلية البنات – جامعة عين شمس

أ.د/ حسين عبده حسين
أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد
كلية البنات – جامعة عين شمس

ملخص:

يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على أهمية محاسبة النفس الإنسانية باعتبارها محاولة لضبط النفس، وتهذيبها، وتأديبها بآداب القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

وقد أوضحت الدراسة اهتمام الحارث المحاسبي بمحاسبة النفس الإنسانية، والرقي بها نحو الكمال الأخلاقي، وذلك بالتحكم في شهواتها، ومخالفة الهوى، وحفظ الجوارح، ومراقبة الله تعالى، والخوف من الله عز وجل.

وصلاح النفس عند الإمام المحاسبي في محاسبتها، ومعاقبتها، ومجاهدتها، وجعل النية الصحيحة أساس العمل الصالح، فإذا صلحت النفس ونواياها صلح العمل، وبالتالي فإن الإصلاح الأخلاقي عند المحاسبي يبدأ بالإصلاح النفسي، فإذا صلحت النفس صلح الجسد كله، وبالتالي يرتقي إلي درجة عالية ومنزلة سامية، ويصبح إنسانًا كاملاً في كل جوانبه الدينية، والأخلاقية.

فالمحاسبي صاحب نظرية أخلاقية تجعل من العقل أساس التمييز بين الخير والشر فهو مناط التكليف ومصدر الإلزام الخلقي بعد القرآن والسنة، وكذلك الضمير الأخلاقي كحاكم على أفعالنا.

Abstract

The present research aims at throwing a revealing light on the importance attached to holding the human soul responsible for its own action as an attempt to teach a human being how to practice the utmost degree of self constraint practice the utmost degree of self constraint and stick to the rules of good behavior through strict adherence to the religious teachings of the holy Koran and the prophets mode of life (i.e prophetic sunnah teachings).

The present study showed that "El Harith El Mohasibi" stressed the importance of holding the human soul accountable and responsible for its own actions and responsible for its won actions and guiding it to the right path leading to moral perfection. This can only be achieved by suppressing our animal desires controlling our instincts and appetites and showing our fear of God.

The moral elevation and sublimation of a human soul lies in its account ability before God for its own action for God punishes man for his evil deeds and rewords him for the good ones in Iman El Mohabi's opinion good intention is the basis upon which we can judge good deeds, so moral reform starts with the psychological remedy of oneself. Man should purge his soul from evil, hatred and drudgery first before hoping to reach a state of bodily perfection. In doing so man can transcend to the higost degree of moral sublimation and become a prefect soul in whose heart lies deep the true and honest religious and moral teachings of Islam.

Accordingly Iman El Mohasbi is a great thinker who puts a remarkable theory of morality which makes the mind the only basis upon which man can differ between good and bad. For him mind comes in the third place after the holy Koran and sunnah (i.e prophetic of life) as the main source of moral obligation. Moreover Iman EL Mohasbi urged that we can only Judge our actions based upon moral conscience.

مقدمة:

اهتم الإمام المحاسبي بمحاسبة النفس الإنسانية، ومعالجة آفاتها من أجل تنقيتها من الشوائب، ومن كل فعل ذميم ليحررها من النزوات المادية والشهوانية، والتي هى سببا لكل الخطايا والمهلكات.

وذلك من أجل الإقبال على الله تعالى، والتحلي بالصفات الأخلاقية المحمودة التي هى سبب النجاة والفلاح في الدارين. وهذه هي الغاية القصوى عنده.

ويتناول هذا البحث معالجة الإمام المحاسبي للنفس الأمارة بالسوء وترشيدها إلى طرق التقوى، والإخلاص بغية صفاء القلب من دسائس النفس.

فلقد أدرك الإمام السلبيات الدفينة لتلك النفس الأمارة بالسوء ورأى أن صلاحها في محاسبتها، وتأديبها بآداب القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

وانطلاقاً من تجربته الصوفية رأى أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله عز وجل، وأداء فرائضه، والورع في حلاله وحرامه، وجميع حدوده، والتأسي برسوله ρ.

أما المنهج المتبع هو المنهج التحليلي، والمنهج المقارن.

وينقسم البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وتشمل المبحث الأول: تعريف محاسبة النفس عند المحاسبي، والمبحث الثانى: أنواع المحاسبة وخصال أهلها، والمبحث الثالث: كيفية محاسبة النفس وأهميتها، وخاتمة تشمل النتائج، وأخيرًا قائمة بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول : تعريف محاسبة النفس عند المحاسبى

اهتم المحاسبي[١] بمحاسبة النفس الإنسانية، واشتهر بالمحاسبة علمًا وسلوكًا، ولذلك سُمِّي بالمحاسبي.وفي ذلك يقول المناوي[٢]: (سمى المحاسبي لكثرة محاسبة نفسه أو لأنه كان له حصى يعدها ويحسبها وقت الذكر) [٣].

ويروي القشيري[٤] عنه: (أنه كان لا يأكل من طعام فيه شبهه، فكان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهه ضرب على رأس أصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال) [٥].

ويقول المحاسبي كما ورد في الرسالة القشيرية: (إن بيني وبين الله سبحانه علامة أن لا يسوغني طعاماً فيه شبهه، فلم يمكنني ابتلاعه) [٦]. وهذا يدل على مبلغ ورعه، وشدة خوفه، ومحاسبته لنفسه على كل حركة، أو لفظه، أو خاطرة.

فالمحاسبة هي: عدك الشيء، وحسبه[٧].

وهي عند المحاسبي: تعتمد على التميز بين ما كره الله تعالى بالبعد عنه، ومجانبة فعله، وعمل ما أحب الله عز وجل حيث يقول: (النظر والتثبت بالتميز لما كره الله عز وجل مما أحب)[٨].

فالمحاسبة عند المحاسبي هي التأكد أي الوقوف قبل فعل الشيء وتركه. ويقول في مؤلفه "المكاسب": (التثبت في جميع الأحوال قبل الفعل، والترك من العقد بالضمير أو الفعل بالجارحة، وحتى يتبين له ما يترك وما يفعل، فإن تبين له ما كره الله عز وجل جانبه بعقد ضمير قلبه، وكف جوارحه عما يكره عز وجل، ومنع نفسه من الإمساك عن ترك الفرائض، وسارع إلى أدائها) [٩].

معنى ذلك أن المحاسبة عنده تعتمد على عدة خطوات وهي: التميز، التثبت، المجانبة، وكف الجوارح، وأداء الفرائض.

---

(١) المحاسبي: [١٦٥هـ- ٧٨١م- ٢٤٣هـ- ٨٥٧م]. هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري، علم العارفين في زمانه، وأستاذ السائرين، من علماء مشايخ القوم الجامع بين علمي الباطن، والظاهر، وعلوم المعاملات والإشارات، عالماً بالأصول، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد، والرد على المعتزلة، وغيرهم.
ولد المحاسبي بالبصرة في العراق، وانتقل من البصرة إلى بغداد حتى وفاته. وتتلمذ على يد "الإمام الشافعي"، ومن مؤلفاته: الرعاية لحقوق الله، وبدء من أناب إلي الله ،وآداب النفوس،وفهم القرآن، ورسالة المسترشدين، ومعاتبة النفس، وغيرها.
السبكي: طبقات الشافعية، تحقيق: محمود محمد الطناحى، الجزء الثاني، دار هجر للنشر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٦م، ص ٢٧٥.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الجزء الثاني ، ١٩٧٢م، ص ٥٧.
ابن العماد : شذرات الذهب، تحقيق:عبد القادر الأرناؤوط، الجزء الثالث، الطبعة الأولي ، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨، ص ١٩٨.
أبي نعيم الأصفهاني:حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر، ١٩٩٢م،ص١٠.

(٢) المناوي: [٩٥٢هـ- ١٠٣١هـ- ١٥٤٥م- ١٦٢٢م].
هو محمد عبد الرءوف المناوي تاج العارفين، بن علي بن زين العابدين من كبار العلماء بالدين، والفنون، من مؤلفاته: فيض القدير، شرح الشمائل، والكواكب الدرية، وغيرها.
الزركلي: الأعلام،الجزء الثاني، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، بدون تاريخ، ص ٢٠٤.

(٣) المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية،الجزء الأول، بيروت ،لبنان، ١٩٣٨م، ص ٢١٨: ٢١٩.

(٤) القشيري: [٣٧٦هـ- ٤٦٥هـ- ٩٨٦م- ١٠٧٢م].
هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحه أبو القاسم القشيري، من كبار العلماء في الفقه، والتفسير، والحديث، من مؤلفاته: الرسالة القشيرية، كتاب القلوب الصغير، والكبير، وغيرها.
الزركلي: الإعلام، الجزء الرابع، ص ٥٧.

(٥) القشيري: الرسالة القشيرية، الطبعة الثانية، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر،١٩٥٩م، ص١٢: ١٣.

(٦) القشيرى: الرسالة القشيرية ، ص١٣.

(٧) ابن منظور: لسان العرب،الجزء الأول ،الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ه، ص ٣١٠.
المناوي: التعاريف، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ص ٦٤٠.

(٨) المحاسبي: القصد والرجوع إلى الله، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، المجلد الأول، الطبعة الأولى، - دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص٢٢٩.

(٩) المحاسبي: المكاسب، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا،المجلد الأول، الطبعة الأولى، مصر، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص٦٨.

والمجانبة عنده بالضمير، والضمير عنده هو: مراجعة النفس، ووقوف الإنسان مع نفسه، ومراجعتها فيما يصدر عنها من أفعال، فإذا رأى الإنسان أمراً محموداً صار فيه، وإذا رأى مكروهاً أدركه بحسن المراجعة[١٠].

ويعرف المحاسبة أيضاً بقوله: (قيام العقل على حراسة النفوس من خيانتها، لتتفقد منها زيادتها من نقصانها) [١١].فمحاسبة النفس محاسبة عاقلة ليست محاسبة هواجس ووساوس.

فالعقل عنده هو مناط التكليف حيث أنه يميز بين الحق، والباطل، والخير، والشر وتجمع أقوال المحاسبي على أن محاسبة النفس هي الرقابة الذاتية للنفس، وملاحظتها عند كل فعل، وتقييم فعلها، وحكم الإنسان على نفسه.

ويتفق تعريف المحاسبي للمحاسبة مع قول الحسن البصري[١٢]: (لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه، ماذا أردت أن تعملين، وماذا أردت أن تأكلين، وماذا أردت أن تشربين، وإن الفاجر يمضى قدماً ما يعاتب نفسه) [١٣].

ويعرف الماوردي[١٤] المحاسبة: (أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره فإن كان محموداً مضاه، وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل) [١٥].

ويؤكد ابن القيم[١٦] ما أورده المحاسبي في تعريف محاسبة النفس ويقول: (المحاسبة أن يميز العبد بين ماله وما عليه، فيستصحب ماله ويؤدي ما عليه، لأنه مسافر سفر لا يعود) [١٧].

فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولاً، ثم نظره هل قام به كما ينبغي ثانياً؟ وأفضل الفكر الفكر في ذلك، فإنه يسير القلب إلى الله، ويطرحه بين يديه ذليلاً خاضعاً، منكسراً كسراً فيه خبره، ومفتقراً فقراً فيه غناه، وذليلاً ذلاً فيه عزه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل، فإذا فاته هذا فالذي فاته من البر أفضل من الذي أتى به. [١٨]

وتصل محاسبة النفس ومجاهداتها إلى درجة النفس اللوامة. حيث يقول القشيري: (وتصل محاسبة النفس ومجاهداتها عند المحاسبي درجة الملامتية[١٩]، الذين يقوم تصوفهم على الملامة المستمرة للنفس، والفتوة، وهما عنصران توافرا في تصوف المحاسبي أيضاً حيث يعرف بأنها تنصف ولا تنتصف) [٢٠].

---

(١٠) المحاسبي: آداب النفوس، تحقيق:عبد القادر أحمد عطا، المجلد الأول، الطبعة الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص٩١.

(١١) المحاسبي: القصد والرجوع إلى الله، ص٢٢٩.

(١٢) الحسن البصري: [٢١هـ- ٦٤٢م- ١١٠هـ- ٧٢٨م]
هو الحسن بن يسار البصري، إمام وعالم من علماء أهل السنة والجماعة يكنى بأبي سعيد.
الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق، مجموعة من المحققين إشراف شعيب الأرناؤوط، الجزء الثاني، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م، ص ٥١٤.

(١٣) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، تحقيق: المستعصم بالله أبي هريرة، مصطفى بن علي،الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦ه، ١٩٨٦، ص٢٥.

(١٤) الماوردي: [٣٦٤هـ- ٤٥٠هـ- ٩٧٤م- ١٠٥٨م].
هو أبو الحسين علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي، مفكراً إسلامي، من مؤلفاته: أدب الدنيا والدين، والحاوي الكبير، وغيرها.
السبكي: طبقات الشافعية،الجزء الرابع، ص ٦٤.

(١٥) الماوردي: أدب الدنيا والدين، تحقيق: محمد كريم راجح،المجلد الأول، الطبعة الرابعة، دار اقرأ، ١٤٠٥هـ ،١٩٨٥م ،ص٣٤٢.

(١٦) ابن القيم: [٦٩١هـ- ٧٥١هـ- ١٢٩٢م- ١٣٥٠م].
هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله شمس الدين، من أكابر العلماء. من مؤلفاته: الجواب الكافي، والروح، وإغاثة اللهفان وغيرها.
ابن كثير : البداية والنهاية،الجزء الرابع عشر، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤١٠ه ـ، ص٢٠٢.

(١٧) ابن الجوزي: إغاثة اللهفان في مقاصد الشيطان، تحقيق: محمد عزيز شمس،المجلد الأول، الطبعة الأولى، مجمع الفقه الإسلامي، بجدة، ١٤٣٢هـ، ص ٨٨.

(١٨) ابن الجوزي: إغاثة اللهفان في مقاصد الشيطان، تحقيق: محمد عزيز شمس،المجلد الأول، الطبعة الأولى، مجمع الفقه الإسلامي، بجدة، ١٤٣٢هـ، ص ١٥٢.

(١٩) الملامتية: اسم اشتهر على طائفة من الصوفية السنيه ، وقد سمو بالملامتية لأن طريقتهم تقوم على ملامة النفس فى كل الأحوال.

(٢٠) القشيري: الرسالة القشيرية، الجزء الثاني، ص ٤٧٣.

كما وصفها المحاسبي: (حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الأمانة، وحسن الإخاء مع الوفاء) [٢١].المراد بهذا الكلام التنبيه علي عزة من يتصف بالاستقامة مع وجود آفات النفس . ويجمع بين حسن عبادة الله، والاجتهاد في طاعته وبين بذل حقوق الناس وطيب معاملتهم، ويلزم نفسه حقوق التآخي وحسن الموادة والأمانة .

النفس عند المحاسبي هي: النفس الأمارة بالسوء، ولكي تتصف تلك الصفات الحسنة لابد من مجاهداتها، ومحاسبتها حيث يعرفها بقوله: أعلم أن النفس أمارة بالسوء، يعني أنها تأمرك نفسك بكل قبيح، وبكل سوء، كما قال تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ...} [٢٢]، فينبغي منك أن تضعها حيث وضعها الله تعالى، وقم عليها بما أمرك الله فيها، فإن نفسك أغوى لك من إبليس)[٢٣].

فمحاسبة النفس علاج لإستيلاء النفس الأمارة بالسوء علي قلب المؤمن.

والنفس الأمارة بالسوء مجمعه على تضييع حقوق الله عز وجل فلابد من مراقبتها، وعدم إهمالها، ومجاهداتها[٢٤].

ويقول المحاسبي: (وبعد فإنك منهي عن تفضيل نفسك وتزكيتها، محرم عليك الإعجاب بها) [٢٥].وذلك لأن العُجب يؤي إلي الوقوع في آفات النفس الإنسانية

وعلامة معرفة النفس عند المحاسبى: سوء الظن بها[٢٦]. وذلك لمعرفة خباياها وإظهار نزعاتها، وكذلك الملامتية جعلوا سوء الظن بالنفس فى مقابل حسن الظن بها أصلا من أصولهم، ودواء للنفس من عللها[٢٧].

يوصي المحاسبي بمحاسبة النفس ومخالفتها في جميع ما تدعو إليه، فالمحاسبة عنده نعمه حيث يقول: (نعم الصاحبان الهم والحزن بأمر الآخرة، ونعم الشغل المحاسبة، وصاحب الهم والحزن، والمحاسبة يجعل الساعة التي ليس فيها هم، ولا حزن ، ولا محاسبة ساعة بطالة،وأقل قليل الغفلة ،عنده كأكثر الذنوب عند غيره) [٢٨].

ويؤكد الإمام الغزالي على ضرورة محاسبة النفس الإنسانية حيث يقول: (عرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سينافسون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة) [٢٩].

وبقول ابن القيم: (محاسبة النفس حتى تعرف ما لها وما عليها ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالا فيضعفها ويهملها) [٣٠].

وإن الفكرة المحورية التي تدور حولها أفكار الحارث المحاسبي هي محاسبة النفس[٣١].

([٢١]) المحاسبي: المسائل في الزهد، تحقيق: عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ص ١٠٢.
([٢٢]) سورة يوسف، آية: ٥٣.
([٢٣]) المحاسبي: شرح المعرفة وبذل النصيحة، تحقيق:مجدي فتحي السيد، طنطا، مصر، بدون تاريخ، ص٢٧.
([٢٤]) المحاسبي: الوصايا، ص١٢١.
([٢٥]) المحاسبي:المسائل في الزهد، ص١٠٢.
([٢٦]) المحاسبى: آداب النفوس، ص١٦٧.
([٢٧]) أبو العلا عفيفى: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة،طبعة عيسى البابى الحلبى،١٣٦٤ه،١٩٤٥م، ص٥٨.
([٢٨]) المحاسبى:آداب النفوس ، ص ١٢٥.
المحاسبي: بدء من أناب إلى الله، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، المجلد الأول، ص٢٣.
([٢٩]) الغزالي: إحياء علوم الدين،الجزء الرابع، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ص ٤١٨.
([٣٠]) ابن القيم: مدارج السالكين،الجزء الثانى، دار الكتاب العربي، ١٤٢٣ه، ٢٠٠٣م، ص ٥١٠- ٥١١.
([٣١]) عزيز السيد جاسم: متصوفة بغداد، الطبعة الأولى، دار الشئون الثقافية ،ص١١٢.

ويقول الأستاذ/ عبد المنعم الحفني ": (والمحاسبة التي يقول بها المحاسبي والتي ينسب إليها هي محور تفكيره الصوفي، ومذهبه في التصوف، وهي موازنة يقول إنها في ثلاث مواطن: فيما بين الإيمان والكفر، وفيما بين الصدق والكذب، وبين التوحيد والشرك) [٣٢].

ويذهب المحاسبي إلى أن المحاسبة مخرج تتولد من مخاوف النقص، وشين البخس، والرغبة في زيادة الأرباح، ويضرب مثالاً بالشريك الذي يحاسب شريكه مخافة البخس والخسران، وأمل رجاء كثرة الأرباح[٣٣].

ويستشهد المحاسبي بعالم من علماء التصوف المعاصرين له وهو ذو النون المصري[٣٤] حيث يقول كما قال ذو النون لبعض العابدات بم تجدين الزيادة؟ قالت: (بالتفقد والمحاسبة)[٣٥].

وقال ميمون بن مهران[٣٦]: (لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه) [٣٧].

ولهذا قيل النفس كالشريك الخوان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك[٣٨].

وقال مالك بن دينار[٣٩]: (رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟، ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائداً) [٤٠].

وهذا يدل علي اهتمامه بدراسة النفس الإنسانية،وتحليلها تحليلاً دقيقًا وبيان أحوالها ،وآفاتها،وعيوبها ، وكيفية علاجها.

فقدم أراء نفسية تحليلية،وسما بدراسة النفس إلى درجة المحلل النفسى البارع ،درجة تفوق علماء التفس المحدثين. وفى ذلك يقول الدكتور:عبد الحليم محمود:(إبداع المحاسبى الأصيل إنما يظهر فى تحليله النافذ المتكامل للنفس، وغاية هذا التحليل الوقاية من الشر ومن ارتكاب الذنوب، وعلاجهما والنجاة، ومع أنه يعتمد أساسا على الدين، وأن هدفه الأوحد مرضاة الله، والتوصل إلى سبيل النجاة، فتحليله هذا للنفس الإنسانية يبلغ مرتبة رفيعة فى الأصالة والابتكار) [٤١].

وأيضا ما يميز المحاسبى إستخدامه لمنهج الاستبطان[٤٢] التحليلى للنفس والتوغل فى أعماق النفس لمعرفة ما بها من مشاعر وأحاسيس.والدليل على ذلك قول تلميذه الجنيد[٤٣]:(كان المحاسبى يخرجنى من عزلتى إلى الطريق حتى ينتهى إلى مكان يجلس فيه بحيث لا يرانا أحد ثم

([٣٢]) عبد المنعم الحفني : الموسوعة الصوفية ،المجلد الأول ، الطبعة الأولي، مكتبة مدبولي ٢٠٠٣م،ص٣٥٥.
([٣٣]) المحاسبي: القصد والرجوع إلى الله، ص ٢٣٠.
([٣٤]) ذو النون المصري: [١٧٩- ٢٤٥هـ- ٧٩٦- ٨٥٩م].
هو ثوبان بن إبراهيم كنيته أبو الفيض، ولقبه ذو النون، أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري.
السلمي: طبقات الصوفية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص ٢٧.
([٣٥]) المحاسبي: القصد والرجوع إلى الله، ص ٢٣٠.
([٣٦]) ميمون بن مهران: [ت ١١٧هـ].
هو الإمام الحجة أيوب الجزري، من كبار العلماء، والأئمة.
الذهبي: سير أعلام النبلاء،الجزء الخامس، ص ٧٢.
([٣٧]) ابن أبي الدنيا:محاسبة النفس،ص ٢٥.
([٣٨]) ابن أبى الدنيا: محاسبة النفس، ص ٢٥.
([٣٩]) مالك بن دينار: [ت ٧٤٨م].
هو أبو يحيى مالك بن دينار البصري، من أعلام التابعين ومن أعيان كتبة المصاحف.
الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء الخامس، ص ٣٦٢.
([٤٠]) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، ص ٢٦.
([٤١]) د.عبد الحليم محمود:أستاذ السائرين، طبعة دار الكتب الحديثة،سنة ١٩٧٣م.
([٤٢]) الاستبطان: هو تأمل باطنى ينصب على ما يجرى فى عالم الشعور ،ومنه الاستبطان التجريبى ،وهو منهج نفسى يتلخص فى أن يوضع الشخص تحت اختبارات معينة ليصف فى أثناء هذه التجربة شعوره وأحاسيسه . جميل صليبا:ا المعجم الفلسفى، دار الكتاب اللبنانى،بيروت، لبنان،١٩٨٢م، ص٦٤.
([٤٣]) الجنيد: [ت ٢٢١ه- ٢٩٧ه] ه أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري أحد علماء أهل السنة والجماعه.
السلمي : طبقات الصوفية ، تحقيق نور الدين شريبة ، الطبعة الثالثة مطبعة المدني ، القاهرة ١٤١٨ه. ،ص١٢٩.

يقول:سلنى عما يقع فى نفسك فتنثال على السؤلات،فأسأله عنها فيجيبنى عليها للوقت، ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتبا[٤٤].

ويدعونا المحاسبى إلى تفقد السرائر ،ومجاهدة النفس، ومن طرق المجاهدة ،محاسبة النفس باستمرار،واستند إلى القرآن والسنة فى علاج النفس ،وبذلك سبق علماء النفس المحدثين الذين نحوا الدين جانبا ،حيث لا يرون إمكانية تبديل النفس أو تغيره فقدم أراء نفسيه وربطها بعلم النفس الحديث[٤٥].

المبحث الثانى: أنواع المحاسبة وخصال أهلها:

يرى المحاسبي أن المحاسبة على وجهين في مستقبل الأعمال، ومستدبرها.

الوجه الأول: المحاسبة في مستقبل الأعمال، فقد دل عليها الكتاب والسنة وأجمع عليه علماء الأمة[٤٦].

واستند المحاسبي إلى الآيات القرآنية التي تدل على محاسبة النفس في بداية العمل، والنظر، والتثبت. قال تعالى: {... أَئِنَّا لَمَدِينُونَ...} [٤٧].

أي أننا لمحاسبون ومجزيون بعد مصيرنا عظاماً ولحومنا تراباً[٤٨].

وقوله تعالى: {... وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...}[٤٩].

أي فاحذروا الله واتقوه في أنفسكم أن تأتوا شيئاً مما نهاكم عنه[٥٠].

واستند إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوي"**[٥١].

"والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والفاجر من اتبع نفسه هواها"[٥٢].

والمحاسبة في مستقبل الأعمال تعني عند المحاسبي: النظر والتثبت قبل الزلل، ليعرف ما يضره، مما ينفعه، فيترك ما يضره على علم، ويعمل ما ينفعه على علم[٥٣].

أما الوجه الآخر المحاسبة في مستدبر الأعمال وهو فعل ماضي – نطق بها الكتاب والسنة وقالت بها علماء الأمة[٥٤].

وهذا يدل على أن المحاسبة أمر واجب بناء على ما نص عليه الكتاب والسنة. واستند المحاسبي إلى الآيات التي تدل على المحاسبة في مستدبر الأعمال. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...}[٥٥].

أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم[٥٦].

---

(٤٤) المحاسبى: الوصايا، تحقيق: عبد القادر عطا ، المجلد الأول،الطبعة الأولى،دار الكتب العلمية،١٤٠٦ه،١٩٨٦م ص٧.
(٤٥) من أبرز الدراسات التى تناولت الآراء النفسية لدى صوفية القرن الثالث الهجرى فى ضوء علم النفس الحديث دراسة الدكتور:عامر يس النجار:التصوف النفسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦م.
(٤٦) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص٤٨.
(٤٧) سورة الصافات، آية ٥٣.
(٤٨) الطبري: تفسير الطبري ،الجزء الحادي والعشرون، دار المعارف، بدون تاريخ، ص٤٧.
(٤٩) سورة البقرة، آية: ٢٣٥.
(٥٠) الطبري: تفسير الطبري،الجزء الخامس، ص١١٧.
(٥١) أخرجه البخاري في صحيحة، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ١/٦ رقم (١).
(٥٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٦٣٨/٤، رقم ٢٤٥٩.
(٥٣) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٤٨: ٤٩.
(٥٤) المصدر السابق، ص٥٠.
(٥٥) سورة الحشر، آية: ١٨.

إن المحاسبة تكون على الأعمال، والأفعال فيجب عند الإقبال على العمل وفعله من النظر، والتثبت، والتميز وطرح بعض الأسئلة على النفس هل العمل يرضي الله ورسوله؟ وهل أمرني به الله عز وجل؟ وهل العمل يعود علي بالمنفعة أم بالضرر؟

قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٥٧]. أي أفعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة، والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة[٥٨].

أما عن خصال أهل المحاسبة فلقد وضع المحاسبي عشر خصال لصلاح النفوس بهدف الوصول إلى النجاة، وهذه الخصال يتبعها أهل المحاسبة لأنفسهم حيث يقول المحاسبي: (وهذه خصال مجربة، جربها أهل المحاسبة لأنفسهم، فلما قاموا بها أحكموها بإذن الله عز وجل، ووصلوا إلى المنازل الشريفة، وإنما هي الأشياء بقوة العزم ومخالفة الهوى بإذن الله) [٥٩].

ويتضح من قول المحاسبى أنها خصال مجربة مدى إبداع المحاسبى فى معالجة النفس،وكيف أنه اختلف بشكل واضح عن الأخلاق اليونانيه التى وقفت عند ما هو نظرى فقط ،ورأى أرسطو فى السعادة ينحصر فيما هو عقلى تأملى، فالمحاسبى تجاوز هذه الرؤيه ودعم الفعل الأخلاقى بالدين وقوة العزيمه، ومخالفة الهوى، وكل هذه الأفعال بحراسه من الله سبحانه.

الخصلة الأولى: عدم الحلف بالله:

يقول المحاسبي: (فإنها خصال مجربة، وهي عشر خصال أولها: لا تحلف بالله لا صادقًا، ولا كذابًا، لا عامدًا، ولا ساهيًا، فإنك إذا عودت ذلك نفسك، وعودته لسانك فتح الله لك بابًا من أمورك، تعرف منفعة زيادة دينك، ورفعه في درجتك عند ربك، وعند الإخوان وكرامة عند الجيران، حتى يأتمن بها من عرفك، وبها بك من لم يرك) [٦٠].

فوضح فوائد عدم الحلف بالله من زيادة، ورفعه في الدين، وعند الله تعالى، وعند باقي الخلق، واستند إلى قوله تعالى: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[٦١]. أي لا تجعلوه عله لإيمانكم[٦٢].

الخصلة الثانية: عدم الكذب:

يوصي المحاسبي بعدم الكذب في حق أو باطل أو مزاح أو غير ذلك، ومن التزام بذلك ينشرح صدره، ويزكى به عمله[٦٣].

الخصلة الثالثة: عدم خلف العهد:

أنه لابد من الالتزام بالوعد، وعدم خلفه إلا أن يكون له عذر، وإلا كان كاذباً. قال تعالى: {...وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً...}[٦٤]. أي أوفوا بالعقد الذي تعاقدون الناس في الصلح بين أهل الحرب والسلام وأن الله جل ثناؤه سأل ناقض العهد عن نقضه إياه[٦٥].

ويقول المحاسبي في فائدة هذه الخصلة: (فإذا حكمت هذه الخصلة، وداومت عليها، فتح الله لك بابًا من السخاء، ودرجة الحياء، وأعطيت رفعه عند الله إن شاء الله) [٦٦].

---

(٥٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الجزء السابع،الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ص٥٤٥.
(٥٧) سورة النور، آية: ٣١.
(٥٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء السادس، ص٥٠.
(٥٩) المحاسبي: شرح المعرفة وبذل النصيحة، ص ٤٢.
(٦٠) المصدر السابق ، ص٤٣.
(٦١) سورة البقرة، آية: ٢٢٤.
(٦٢) البغوي: تفسير البغوي، الجزء الأول، دار طيبه- دون تاريخ- ص٢٦٣.
(٦٣) المحاسبي: شرح المعرفة وبذل النصيحة، ص ٤٣: ٤٤.
(٦٤) سورة الإسراء، آية: ٣٥.
(٦٥) الطبري: تفسير الطبري،الجزء السابع عشر، ص ٤٤٤.

الخصلة الرابعة: عدم اللعن:

يوصي المحاسبي بعدم لعن شيئاً من خلق الله تعالى، وإن ذلك من أخلاق الأبرار، والصديقين، وله عاقبة حسنه في حفظ الله فيحفظه الله في الدنيا والآخرة من المهلكات، وينال محبة الله تعالى، ومحبة المخلوقين[٦٧].

الخصلة الخامسة: عدم الدعاء على أحد:

يؤكد المحاسبي بعدم الدعاء على أحد من خلق الله حتى وإن ظلمك، فلا تقطعه بسوء فعله[٦٨].

الخصلة السادسة: عدم الشهادة على أحد بالكفر:

يحذر المحاسبي من الشهادة على أحد بكفر أو نفاق، ولا تكفر أحدًا بذنب، وأن ذلك أقرب إلى الرحمة، وأبعد من الدخول في علم الله، ويورث ذلك العبد الرحمة للخلق[٦٩].

الخصلة السابعة: البعد عن المعاصي:

يذهب المحاسبي إلى أن البعد عن المعاصي بكف جوارحك عنها، فإن ذلك أسرع الأعمال ثوابًا في القلب، والجوارح، ويحقق ثوابًا في الدنيا والآخرة[٧٠].

الخصلة الثامنة: رفع المؤنه على الخلق:

وذلك بأن لا تجعل لأحد عليك مؤنه صغيرة ولا كبيرة، وارفع مؤنتك عن الخلق أجمعين، ويكون الخلق عندك بمنزلة واحدة. وهذه الخصلة هي عز المؤمنين وشرف المتقين[٧١].

الخصلة التاسعة: عدم الطمع:

يعني عدم الطمع فيما في أيدي الخلق، وفي ذلك عز، وفناء خالص، وفخر، وتوكل، وهو باب من أبواب الثقة بالله تعالى، والزهد، والورع[٧٢].

الخصلة العاشرة: التواضع لمن له الفضل عليك:

وهي أساس الخصال كلها السابقة الذكر، وهي أصل الطاعات عند المحاسبي، وأن الفضل يمنحه الله تعالى لمن يريد سواء كان صغيرًا أو كبيرًا أو عالمًا أو جاهلاً[٧٣].

ويوضح المحاسبي فائدة هذه الخصال العشر بأنها ترفع صاحبها في الدرجات العلى، وينال منزلة شريفة في الدنيا والآخرة، والجاه والمودة في قلوب الخلق[٧٤].

المبحث الثالث: كيفية محاسبة النفس وأهميتها:

- **مخالفة الهوي :**

هناك طرق لتأديب النفس ومحاسبتها تتمثل عند المحاسبي في مخالفة الهوى ويكون بترك شهوات النفس، وعدم الميل إلى رغبة النفس والهوى عند المحاسبي هو: (تعلق النفوس

---

(٦٦) المحاسبي: شرح المعرفة وبذل النصيحة، ص ٤٥.
(٦٧) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٦٨) المصدر السابق ، نفس الصفحة.
(٦٩) المصدر السابق، ص ٤٦.
(٧٠) المصدر السابق، نفس الصفحة..
(٧١) المحاسبى:شرح المعرفة وبذل النصيحة، ص ٤٧.
(٧٢) المصدر السابق، ص ٤٧: ٤٨.
(٧٣) المصدر السابق، ص٥٠.
(٧٤) المصدر السابق، ص٤٥.

بالشهوات، وميلها إلى الرحات، فعلى قدر الشهوات يتمكن منها الضعف فيستولى عليها الهوى)[٧٥].

ويوضح المحاسبي أن النفوس تخلفت عن محاسبة النفس بسبب غلبة الهوى، والشهوة، لأنهما ضد النظر والعلم، والبيان[٧٦].

ويقول المحاسبي عن أهمية محاسبة النفس: (وحاسب نفسك محاسبة من يعلم أنه قادم على الله تعالى، ويعلم أن الله يسأله عن جميع ما يكون منه في السر والجهر، ويعلم أنه لا ينجو من الله إلا بالصدق والاستقامة، مع عفو الله وجوده، وكرمه. فأعمل ذكرك في قتل هوى نفسك، وأحذر من الأماني والتسويف، أعاننا الله وإياك عليها، بال عقوبة منه لنا) [٧٧].

وقال الحسن البصري: (إن المؤمن- والله- ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل فعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قدمًا لا يعاتب نفسه) [٧٨].

وهذه هى النفس اللوامه التى تلوم نفسها على كل فعل ذميم، وتستغفر ربها،راجعة إلى ربها الغفار الرحيم،ولهذا نوه الله تعالى بذكرها بالإقسام بها فى قوله تعالى:"لا أقسم بالنفس اللوامة"[٧٩].

وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله: (حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة) [٨٠].فحساب الدنيا أهون من حساب الآخرة.

ويقوى العبد على محاسبة نفسه عند المحاسبي بثلاث خصال: قطع العلائق التي تشغله عن جمع الهم على المحاسبة، لأن من أراد أن يحاسب غريمه فرغ قلبه من الأشغال، والثانية: التفرد لها عن غيرها اختيار منه لخوف الفوت لما أمل من المحاسبة، والثالثة: الخوف من الله عز وجل أن يسأله عما فرط فيما بلغه على لسان نبيه عليه السلام[٨١].

ويقول المحاسبي عن كيفية محاسبة النفس: (تقدم بين يدي كل فعل تفعله: لم؟ ولمن؟ فإن كان لله مضيت فيه، وإن كان لغير الله امتنعت عنه، ولمت نفسك على إشارتها إلى روح دواعي الهوى، وعاقبتها على ذلك، وأثبت عليها جهلها، وبينت عند العقل والمحاسبة فضيحتها، وعرفت أنها عدوة لك، لسوء فعلها، وما دعتك إلى ما يقطعك عن خالقها) [٨٢].

يوصي المحاسبي بترك الدنيا، والرغبة في الآخرة وذلك بإيثار الله تعالي، والعمل بسنة نبيه صلي الله عليه وسلم حيث يقول: (فمن لم يكن تاركًا الدنيا، راغبًا في الآخرة، مؤثرًا لمحبة الله عز وجل على هوى نفسه باذلاً نفسه وما يملك لا يضن به عنه ولا يبخل به عليه لم يكن بالله سبحانه عالمًا ولا به عارفًا ولا بمذهب رسول الله- (صلى الله عليه وسلم)- متمسكاً لا بطريقه قائماً ولا كان من ورثته ولا من أمنائه وكان من قطاع طريق الله عز وجل- وسبل طلابه ومنهجهم. لأن الله عز وجل- قال لداود- عليه السلام: ولا تستشر في أمرك عالمًا قد أسكرته بحب الدنيا فإنه يقطعك بسكره عن طريق محبتي) [٨٣].

---

(٧٥) المحاسبي: القصد والرجوع إلى الله، ص ٢٣٠.
(٧٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٧٧) المحاسبي: شرح المعرفة وبذل النصيحة، ص ٥٩.
(٧٨) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، ص ٢٥.
(٧٩) سورة القيامة،آية ٢.
(٨٠) ابن أبى الدنيا: محاسبة النفس، ص ٢٦.
(٨١) المحاسبي: القصد والرجوع إلى الله، ص ٢٣٠.
(٨٢) المصدر السابق، ص ٢٢٩.
(٨٣) المحاسبي: العلم، تحقيق:محمد العابد مزالى، المجلد الأول، الدار التونسية للنشر،الجزائر، ص ٩٣.

ويقول في التأسي برسوله صلى الله عليه وسلم: (وقال الله سبحانه وتعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[٨٤] فمن لم يكن متأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقتديًا بهدية متبعًا أثره لم يكن على سنته، وكيف يظن أنه من ورثته وقد أعطى الشيطان مقادته وأمكنه من زمامه وأفنى عمره في مرضاته. فقلبه الدهر مشغول بالفكرة مرة بمحاولة الزيادة والمكاثرة ومرة بمحاولة الرئاسة والمفاخرة ومرة بمحاولة الرفعة والخطوة والشرف غيظًا من المتدينين المتفقهين)[٨٥].

ترك الشهوات:

ربط المحاسبي بين الشهوة وما يترتب عليها من نتائج خاصة اللذة، والاستمتاع، ويوضح أنه ليس شرط كل شهوة أن يترتب عليها لذة ويصاب الإنسان بالحسرة والندامة على إتباع الشهوات التي انقضت عنك لذتها، ويوصي بالخوف والحذر من الله تعالى والتواضع مع استصغار نفسه، وتعظيم الله عز وجل مع شكر الله على النعم، ومحبته بعبادته، والعلم بمراقبته للإنسان وكراهة المعاصي، وعدم فعلها خوف من عقابه[٨٦].

ويقول المحاسبي في التحذير من الشهوات: (احذر شهوة لا تبقى، وندامة لا تفنى).

ويقارن المحاسبي بين شهوات الدنيا، وشهوات الآخرة، وأن ضرر شهوات الدنيا يكون عليك في الآخرة أكثر من نفعها لك في الدنيا، ويقول: (أقل الشهوات لك نفعًا في الدنيا أضرها عليك في الآخرة، وأقل شهوات الآخرة مؤنة عليك في الدنيا أرها عليك نفعًا في الآخرة) [٨٧].

معاقبة النفس:

معاقبة النفس على ما جنت يوضحها المحاسبي في عدة شروط وهي أن تفرق بينها وبين محابها، وتأخذ سوط الخشية لها، بدوام الرعاية لها في سعيها، وتضاعف عليها أورادها، وتزيد في كدها وينقص من غذائها، وتقطعها عن ملاذها، وتجرعها غيظ التهديد زجرًا لها، حتى يغلب سلطان رعايتك سلطان كبرها، فعند ذلك تذل في نفسها، وتخضع بعد كبرها، وتسقط عن كلبها وشرها، وتمر على الاستقامة إلى خالقها [٨٨].

مراقبة الله تعالى:

يحث المحاسبي العباد علي مراقبة الله تعالي في أنفسهم ومحاسبتها وحفظ الجوارح في زمن كثرت فيه دواعي الشهوات ، وتعددت المغريات ، وتنوعت الملهيات ، فلابد من المراقبة لله تعالي في جميع الأقوال والأعمال، فالله تعالي هو الرقيب فالمراقبة عند المحاسبي هي: (علم القلب بقرب الله عز وجل، ودوام علم القلب بعلم الله عز وجل في سكونك وحركاتك علمًا لازمًا للقلب، بصفاء اليقين، وكشف غطاء حجب الظلم غير قاطع عن النظر بمشاهدة الغيب. فعندها يا فتى تغيب أسباب الغفلة عن القلوب بدواهيها، فيعقل عن الله نصائح الحكمة بما فيها، ويكشف له اليقين عما فات منها) [٨٩].

فالمراقبة قطع علائق الأشغال، ولزوم العلم، والتعاهد بالعلم والرعاية.

والمراقبة فرض من الله تعالي على العباد، وهي باب المعرفة بالله عز وجل، وربط المحاسبي محاسبة النفس بمراقبة الله تعالي وفي ذلك يقول: (وحاسب نفسك في كل خطرة،

---

(٨٤) سورة الأحزاب، الآية ٢١.
(٨٥) المحاسبي: العلم، ص ٩٤.
(٨٦) المحاسبي: آداب النفوس، ص ١٦٨: ١٦٩.
(٨٧) المصدر السابق، ص١٦٤.
(٨٨) المحاسبي: القصد والرجوع إلى الله، ص ٢٣١. الله ، ص ٣١٣.
(٨٩) المصدر السابق ، ص ٣١٣.

وراقب الله في كل نفس . قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الاكبر يوم لاتخفي منكم خافية)[٩٠].

تعهد القلب:

من آداب النفس ومجاهداتها تعهد القلب بأسباب الآخرة، وصيانة القلب عن شهوات الدنيا، ورغباتها وتخويف النفس مما في أيديها.

يقول المحاسبي: (وتعاهد يا أخي قلبك بأسباب الآخرة، وعرضه لذلك، وصنه من أسباب الدنيا، ومن ذكر يجر إلى الحرص والرغبة) [٩١].

ويوضح أن الانشغال بالدنيا يطفئ نور القلب، فلابد من التعفف عن طلب الدنيا، والرغبة فيها، وترغيبها في الرجوع إلى الآخرة[٩٢].

والنفس مبنية على أساس الطمع في الدنيا، فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من الدنيا، وذلك الطمع يكون أيضًا في الآخرة، فيستعمل الطمع في طلب الزيادة من أعمال الآخرة بالحرص عليها والرغبة فيها.

ويقول المحاسبي: (قيل لحكيم: فما آله الطمع، وجماع آفاته قال الشر والحرص، وهيجان الرغبة) [٩٣].

ويوضح المحاسبي سبب هلاك النفس في إتباع هواها (لأنها مبنية على الطمع فإذا تجردت من طلب أسباب الدنيا، وأقبلت على نفسها بالإياس من المخلوقين، رجعت برغبتها وطمعها إلى طلب أسباب الآخرة فجدت في طلبها، واجتهدت، وعزفت عن الدنيا، وباينت الهوى، وخالفت العدو، وتبعت العلم، وكانت مطية للعقل، صابرة على مر ما يدل عليه الحق فنجت وأنجت)[٩٤].

نستنتج أن مخالفة الهوى، والشيطان، وتحكيم العقل، وإتباع العلم يحقق النجاة للإنسان.

ويوصي المحاسبي بتعهد القلب بتوهم الآخرة وهول مفارقة الدنيا وسؤاله يوم القيامة. يقول المحاسبي: (فتعاهد يا أخي قلبك عند هممه، وألزمه الفكرة في أمر المعاد فلا يفارق قلبك ذلك، وتوهم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيا، وترك ما قد بذل أهلها فيه مهج نفوسهم، وتدنيس أعراضهم، وإخلاق مروءتهم؛ وانتقاص أديانهم، ثم تركوا ذلك كله وقدموا على الله فرادى آحاد، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر، وسؤال منكر ونكير، وأهوال القيامة، والوقوف بين يدي الله، والمساءلة عن جميع ما كان منه، من قول أو فعل، عن مثاقيل الذر، وموازين الخردل، وعن سؤاله عن الشباب فيما أبلى شبابه؟ وعن العمر فيما أفنى عمره؟)[٩٥].

بمعنى أن الإنسان سيسأل عن شبابه وعمره، وماله وعن جميع أعماله ،وعن المال من أين اكتسب؟ وعما منع؟ وفيم أنفق؟ وعن العلم ماذا عمل فيه؟ وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها، والتي كذبوا فيها

الخوف من الله تعالى:

(٩٠) المحاسبي: رسالة المسترشدين، ص ٤٨.
(٩١) المحاسبي: آداب النفوس، ص ٦٥.
(٩٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٩٣) المصدر السابق، ص ٦٥: ٦٦.
(٩٤) المصدر السابق، ص ٦٦.
(٩٥) المصدر السابق ، ص٦٧..

ويؤكد المحاسبي على إلزام الخوف من الله تعالى بمعنى اجتناب المحرمات التي نها الله عنها في الكتاب والسنة، والعمل بأوامره سبحانه حيث يقول: (ولا يفارق قلبك الخوف من الله عز وجل في جميع أحوالك فإذا كنت كثير الاجتهاد، فكن كثير الخوف منه سبحانه).[٩٦].

ويعلق د/ حسين القوتلي ويقول: (فمحاسبة النفس إذن، التي هي أساس الأخلاق، إنما تعود إلى الخوف والرجاء، وأصلهما معرفة الوعد والوعيد، غير أن معرفة الوعد والوعيد تقتضي فهم القرآن من هذه الناحية بالذات) [٩٧].

فبدون المحاسبة للنفس على الأقوال، والأفعال لا توجد أخلاق ذلك لأن الإصلاح يبدأ من الذات ثم تتسع دائرة الإصلاح حتى تشمل المجتمع بأكمله، وأن المحاسبة تعود إلى الخوف من الله تعالى، ورجاء ثوابه، ونعيم الجنة، وأساسهما معرفة وعده ووعيده حسب آيات القرآن الكريم.

وإذا كانت معرفة آيات الله وما وعد وتوعد تورث الخوف، والخوف يورث المحاسبة، والمحاسبة تؤدي إلى المراقبة، ومن المراقبة تتولد المعاني الأخلاقية كالمحبة، والصدق، والإخلاص [٩٨].

([٩٦]) المحاسبي: شرح المعرفة وبذل النصيحة، ص ٧٠: ٧١.
([٩٧]) المحاسبي :العقل وفهم القرآن، تحقيق: د. حسين القوتلي، الطبعة الأولى، دار الفكر، ١٣٩١هـ، ص١٨٢.
([٩٨]) المصدر السابق، نفس الصفحة.

ولمحاسبة النفس الإنسانية فوائد عظيمة أهمها:

أ- معرفة الله تعالى:

ففي محاسبة النفس رجوع إلى الله عز وجل، ومعرفة، ويقين بالله تعالى أنه تعالى سيحاسب العباد على أفعالهم، وأقوالهم وأن الله عز وجل مطلع على عباده.

يقول المحاسبي في معرفة الله تعالى: (أن تلزم نفسك قربه، وتعترف بيقين أن الله تعالى أقرب إليك من حبل الوريد، كما ذكر الله سبحانه في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[٩٩] وتعرف قيامه عليك، وقدرته عليك، وعلمه بك أنه رقيب حفيظ)[١٠٠].

ويقول أيضًا ابن الجوزي في مؤلفه: "إغاثة اللهفان": (ومن فوائد محاسبة النفس أنه يعرف بذلك حق الله تعالى، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًا)[١٠١].

ب- صلاح القلب:

وصلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها، والاسترسال منها.

يقول المحاسبي: (وأصل فساد القلب ترك المحاسبة للنفس، والاغترار بطول الأمل، فإذا أردت صلاح قلبك، فقف مع الإرادة، وعند الخواطر، فخذ ما كان لله، ودع ما كان لغيره، واستعن على قصر الأمل بدوام ذكر الموت)[١٠٢].

ج- محبة الله عز وجل:

بما أن المراقبة عند المحاسبي تستلزم طاعة الله تعالى، فالطاعة توجب محبه الله والالتزام بأوامره، ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول المحاسبي: (ومحبة الله عز وجل في إيثار الطاعة على المعصية، ويقال: ذكر النعمة يورث المحبة)[١٠٣].

د- تحقيق الورع:

وتحقيق مقام الورع حيث ربط المحاسبي بين الورع، والمحاسبة وجعل الورع يحصل بمحاسبة النفس حيث يقول في معنى الورع: (المجانبة لكل ما كره الله عز وجل، من مقال أو بفعل قلب أو جارحة، والحذر من تضييع ما فرض الله عز وجل عليه، في قلب أو جارحة، قلت وبماذا ينال؟ قال: بالمحاسبة)[١٠٤].

ويعلق الدكتور/ بركات محمد مراد عن الارتباط بين الورع، والمحاسبة والهدف من تلك المحاسبة. ويقول: (وأصل المجاهدة، والمحاسبة عند المحاسبي محاولة تحقيق مقام صوفي رفيع هو مقام الورع)[١٠٥].

هـ- معرفة عيوب النفس:

بعد معرفة النفس عند المحاسبي لابد من معرفة عيوب النفس لكي نتجنبها.

---

(٩٩) سورة ق، الآية ١٦.
(١٠٠) المحاسبي: شرح المعرفة وبذل النصيحة، ص ٢٠.
(١٠١) ابن الجوزي: إغاثة اللهفان، ص ٨٨.
(١٠٢) المحاسبي : رسالة المسترشدين، تحقيق:عبد الفتاح أبو غده، دار السلام، القاهرة، بدون تاريخ، ص٤٩.
(١٠٣) المصدر السابق، ص ١٧٩.
(١٠٤) المحاسبي : المكاسب، ص ٦٩.
(١٠٥) بركات محمد مراد :خصائص الزاهد والتصوف عند الحارث بن أسد المحاسبي،الطبعة الاولى، دار الصدر لخدمات الطباعة، القاهرة، ص ٦٨.

يوضح المحاسبي أن الإنسان يتجاهل عيوب نفسه، ولا يراها ولا يعترف بها، ويركز على عيوب غيره من الناس.

ويقول: (إن الإنسان عند معرفة عيب نفسه أبله؟ وعند معرفة عيب غيره جهبذ، فلا يحتقر عيب أهل كل صناعة أهل كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة، ويحتقر عيب من هو في مرتبته، ويستعظم ذلك كل من رآه منه، فإذا أتى على عيب نفسه جازه إلى عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره)[١٠٦].

ويوضح المحاسبي أن الإنسان يطلب العذر لنفسه، ولا يطلبه لغيره، وهو لا يرى عيب نفسه، ينصح الإنسان أن يحب لغيره ما يحب لنفسه، وأن يجعل نفسه مكان الآخر، ويقول: (فإذا رأيت عيبًا أو زلة، أو عثرة من غيرك، فاجعل نفسك مكانه ثم انظر الذي كنت تحب أن يستقبلك به لو رأى منك مثل الذي رأيت منه، وأضمر ذلك له في نفسه، فإنه يحب منك مثل ما كنت تحب منه) [١٠٧].

ويرى المحاسبي أن الإنسان إذا رأى الحسن من الغير فلا يصدر منك حسداً له، ويكون أخف زلة، ويطلب له العذر، وأن يقف الإنسان موقف محايد بمعنى عدم إزالة النعمة من أحد سواء في الدين أو الدنيا، ولا تحب أن يعصي أحد الله عز وجل، وعدم هتك الستر عند الوقوع في الخطأ.

ويوصي المحاسبي العباد أن يشتغلوا بإصلاح أنفسهم عن عيب غيرهم ، فإنه كان يقال: كفى بالمرء عيبًا أن يستبين له من الناس ما يخفي عليه من نفسه، أو يمقت الناس، فيما يأتي بمثله، أو يؤذي جليسه، أو يقول في الناس ما لا يعنيه[١٠٨].

ويقسم المحاسبي العيوب إلى عيوب ظاهرة، وباطنه ويقول في مجاهدة تلك العيوب: (فقد خفيت عنه هذه العيوب مع قلة ذكر المعاد ونسيان المنتهى. فهو عند نفسه صاحب عبادة وسمت وصلاة وصوم والباطن خراب. يقدم على ربه وفيه هذه العيوب الباطنة غير تائب منها لأنه لم يتنبه لها. فبدا له من الله ما لم يكن يحتسب إذا كان مغرورًا بظاهر أمره ولم يصدقه باطنه) [١٠٩].

وهذا يعني أن منهم من ترك العيوب الظاهرة وانتبه للعيوب الباطنة وأن يقبل على النفس الأمارة بالسوء ويراضيها حتى تترك هذه الأخلاق ويجاهدها ويصدق في مجاهدتها حتى تستقيم. فيقدم على ربه- عز وجل طاهرًا مطهرًا تائبًا نازعًا عن العيوب الظاهرة والباطنة.

---

(١٠٦) المحاسبي : معاتبة النفس، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، المجلد الأول، دار الاعتصام، بدون تاريخ، ص٩٠.
(١٠٧) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(١٠٨) المحاسبي: رسالة المسترشدين ، ص ٥١.
(١٠٩) المحاسبي: العلم، ص٩١.

خاتمة

نعرض فيها لأهم النتائج:

١- الحارث المحاسبي أستاذًا للسالكين طريق التصوف، حيث كان له إسهامات كبيرة في بناء التصوف الإسلامي حيث تناول قضايا ومشكلات عصره وحاول حلها بالتركيز على دراسة النفس الإنسانية وتحليلها وتنقيتها من الآفات، ودراسة الأخلاق التي يجب أن تتحلى بها النفوس فسما في دراستها إلى درجة المحلل النفسي.

٢- إن الإصلاح الأخلاقي عند المحاسبي يبدأ بالإصلاح النفسي إذا صلحت النفس صلح سائر الجسد، فيرتقى الإنسان إلى درجة عالية.

٣- إن هدف المحاسبي أخلاقي فقد أراد نشر حسن الخلق في نفسه ومجتمعه.

٤- اعتمد المحاسبي على القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة في دراسته للنفس، والأخلاق؛ فالقرآن هو الشفاء التام للكثير من آفات النفس الظاهرة والباطنة

٥- اتبع المحاسبي في محاسبة النفس وتأديبها أسلوب إتباع القول بالعمل أو التوازن بين النظرية والتطبيق من خلال اهتمامه بدراسة النفس الإنسانية وما ينبغي لها سلوكه وما ينبغي لها الابتعاد عنه أي طريقة التخلية والتحلية.

٦- اهتم بالنفس فبحث عن عيوبها، ونصح بمحاسبتها، وتزكيتها حتى ترتقي النفس وتصل إلى معرفة الله عز وجل .

٧.ربط المحاسبى بين منهج التحليل النفسى والعلاج الصوفى،فقد كان إبداعه الرائع فى تحليله المتكامل للنفس بهدف إنقاذ النفس من الوقوع فى براثن الشهوات،والذنوب.

٨-ومن أهم النتائج استطاع المحاسبي ان يسبق المدارس النفسية الحديثة في الكشف عن افات النفس الانسانية ولم يقف عند هذا الحد بل قدم حلول للعلاج نابعة من القران والسنة وصالحة للتطبيق في كل مكان وزمان .

٩- ابراز أهمية الدين في تنظيم حركة الحياة وهو في الحقيقة رد من الامام المحاسبي علي الاتجاهات المعاصرة الملحدة التي تحاول أن تنكر الدين في الحياة وتحصر وجوده فقط في طقوس العبادة وبالتالي تسلبه الفاعلية في الحياة المعاشة .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم:

المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم، دار الصحابة للتراث ، طنطا.

ثانياً: كتب الأحاديث:

١- أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري (الإمام) : الصحيح، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، اعتنى به: محمود بن الجميل ، مكتبة الصفا ،القاهرة ، ٢٠٠٣م.

٢- محمد بن عيسى الترمذي : السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين ،دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.

ثالثاً: المصادر:

المحاسبي: (الحارث بن أسد).

١- آداب النفوس: تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٢- الرعاية لحقوق الله: تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، المجلد الأول، الطبعة الرابعة، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

٣- العقل وفهم القرآن : تحقيق : د. حسين القوتلي، الطبعة الأولي، دار الفكر ١٣٩١م.

٤- العلم : تحقيق: محمد العابد مزالي، المجلد الأول، الدار التونسية للنشر، الجزائر، ١٩٧٥م.

٥- القصد والرجوع إلى الله: تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٦- المسائل في الزهد: تحقيق: عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

٧- المكاسب : تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، المجلد الأول، الطبعة الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٨- الوصايا: تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٩- بدء من أناب إلى الله: تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ،١٩٩١م.

١٠- رسالة المسترشدين: تحقيق: عبد الفتاح أبو غده، المجلد الأول، الطبعة الخامسة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بحلب، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١١- شرح المعرفة وبذل النصيحة : تحقيق: مجدي فتحي السيد، طنطا، مصر، بدون تاريخ.

١٢- معاتبة النفس: تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، بدون تاريخ.

رابعاً: المراجع العربية:

١- ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي): إغاثة اللهفان، تحقيق، محمد عزيز شمس، مصطفى ابن سعيد اتيم، الجزء الأول، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ١٤٣٢هـ.

٢- ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد بن محمد): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق:عبد القادر الأرناؤوط، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٣- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد): مدارج السالكين، تحقيق: ناصر بن سليمان السعودي، علي بن عبد الرحمن القرعاوي، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، دار الصميعي، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٤- ابن كثير (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، الجزء الرابع عشر، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤١٠هـ.

٥- تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الجزء الخامس، دار طيبة للنشر، بدون تاريخ.

٦- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين): لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

٧- أبو العلا عفيفى: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، طبعة عيسى البابى الحلبى،١٣٦٤هـ،١٩٤٥م.

٨- أبو نعيم الأصفهاني (علي بن الحسين بن محمد أبو الفرج): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء العاشر، دار الفكر، مصر، ١٤١٤هـ، ١٩٩٢م.

٩- البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود): تفسير البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، جمعه ضميريه، سليمان مسلم الحرش، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١٠- الذهبي (شمس الدين): سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين، إشراف: الشيخ شعيب الأرناؤوط، الجزء الثاني، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

١١- الزركلي (خير الدين): الأعلام، الجزء الثاني، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، بدون تاريخ.

١٢- السبكي (أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب): طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق: محمود محمد الطناحي، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.

١٣- السلمي: طبقات الصوفية، تحقيق:نور الدين شريبه، الطبعة الثالثة، مطبعة المدني، القاهرة ١٤١٨هـ.

١٤- الغزالي (أبو حامد محمد): إحياء علوم الدين، الجزء الرابع، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

١٥- القشيري (عبد الكريم بن هوازن): الرسالة القشيرية، الطبعة الثانية، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٩م.

١٦- الماوردي (أبو الحسن على بن محمد): أدب الدنيا والدين، تحقيق: محمد كريم راجح، المجلد الأول، الطبعة الرابعة، دار اقرأ، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

١٧- المناوي (محمد عبد الرءوف): الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، الجزء الثاني، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٣٨م.

١٨- بركات محمد مراد: خصائص الزهد والتصوف عند الحارث المحاسبي، سلسلة الدراسات الصوفية، الطبعة الأولى، الصدر لخدمات الطباعة، القاهرة، ١٩٩٢م.

١٩- عامر يس النجار : التصوف النفسي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٦م.

٢٠- جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢ م.

٢١- عبد الحليم محمود : أستاذ السائرين ، دار الكتب الحديثة ،١٩٧٣م .

٢٢- عبد المنعم الحفني : الموسوعة الصوفية ، المجلد الأ ول ،الطبعة الأولي، ص٢٠٠٣ م.

٢٣- عزيز السيد جاسم : متصوفة بغداد، الطبعة الثانية، المركز الثقافي العربي للنشر، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٧م.